

الانزمات الفكرية حقيقتها وأسبابها

عبد العزيز بن عبد الله

انتظم لقاء بالرباط في شهر نونبر 1981 ، باشراف
أكاديمية المملكة المغربية ، لدراسة
موضوع الانزمات الفكرية والروحية شاركت فيه
شخصيات عالمية وقد اسهم بالنيابة عن أكاديمية
المملكة المغربية اعلام من جيلتهم للاستاذ عبد العزيز
بن عبد الله .

تصرفات استعمار جديد مقنع لا يزال يحن الى ما
تميز به وامتاز ضمن قرون مضت ، فالمجاذبات التي
نعيشها اليوم بين الشمال الجنوب ليست سوى
مظاهر تتلور انتصام العالم الى معسكرين يوصم
احدهما بالتخلف والعجز الذاتي وعدم الكفاية الفكرية
بحيث تظل المؤثرات والفوارق المادية في العمق المعيار
الوحيد للتقدير والتقييم .

ان فكرة تبعية الشعوب بعضها لبعض فكرة
رائعة لانها تنبثق من اعماق الفكر الانساني الفطري
غير انها استعملت في مسار وحيد الاتجاه يخضع فيه
الاضعف للاقوى ويسخر فيه الاشد فقرا للاكثر ثراء
وغنى بحيث نرى موارد الطاقة والمواد الاولية من
جهة كما نشهد من جهة اخرى فكرة استثمار واستغلال
هذه الطاقات والثروات من طرف ثلة من المنتجين لا
تزال — على ما يظهر — تحت تأثير حجب ولت وعهود

ان العالم يتطور — ضمن علاقات موصولة بين
شعوبه — في مسار متحرك تتفاعل فيه مؤثرات تبس
اشد الثبرات حساسية في المجتمع المعاصر .
ان الانسانية عرضة لتقلبات تنبثق عن مشاكل
جديدة وبالاخص عن نظريات متجددة حول مناهج
الحياة وبعض مجالات الحضارة .

وهكذا يخضع رجل القرن العشرين لمؤثرات
تكيفها وتعاملها مجموعة من العوامل ابرزها شعور
بالشخصية او حس بالذات ادى الى تفجير طاقات
تولد عنها ما يسمى بالعالم الثالث .

انها هوية ام تنمخض فقط عن رغبة ملحة نسي
التحرر من نير كتلتين تجرهما باستمرار قوتان
عظمتان بل ان تتفق هذه الهوية استمد مفهومه من
شعور عارم بالغبن والابتزاز تولد هو الآخر عن

أدبرت كانت لها خلالها سيطرة عسكرية يذكها مركب سمو واستعمار بالسود والكمال الذاتيين ، وهكذا يتجلى القانون الدولي نفسه وكأنه معلول لبواعث صارمة تغذيها وجهات عقدية أوجدت لنفسها مبررات طوال أجيال في لبوس حضارة معاصرة طريفة .

وقد تولد عن هذا المشرع الاحتكاري ما أدى إلى خلل في الكيان البشري أسفر عن أزمات مزمنة تحركت لها كوامن العالم الحديث في اضطرابات متوالية .

وما دامت مظاهر عدم التساوق هذه متحركة فإن أي حل للآزمات التي تواجهها الإنسانية سيظل مجرد دواء مؤقت يهدى الألم ولا يستأصله .

إننا لم نحاول في عرضنا هذا إضفاء طابع شرقي باسم الإسلام على عالم مغير للعالم العربي مع أن أوربا حاولت بالعكس (تغريب) الشعوب المستضعفة التي جعلها القدر تحت سيطرتها وذلك باسم فكر ديني وتقاليد هيلينية يهودية مسيحية وقد عبر زميلنا (مارسيل بوازار) عن هذه الحقيقة (1) مؤكدا « أن واضعي قانون الشعوب حاولوا باسم المسيحية نرض قواعد لتسيير الحروب أواخر العصور الوسطى وتعللوا بمثل هذه المراسيم بعد ذلك إلى القرن التاسع عشر » .

إن العالم المعاصر يسمى لحل مشاكله الدولية في نطاق معاملة متحجرة جامدة يبقى فيها كل تجديد أو تعديل مشروطا بتغذية مصالح توصف بأنها مكتسبة دون أية رعاية للخلق الدولي .

وهكذا يتعارض المسار الغربي المطبوع بخاتم عقدي مع انطلاقة عارمة لدى شعوب استرقها الاستعمار - نحو التحرر والتطور ضمن تعادلية حق مجردة من كل عوامل العنصرية والمؤثرات الدينية .

فإذا كنا نحن المسلمين الذين نمثل ربع الإنسانية نطلق حتما من عقديات فنانا متمسكون بقيم معنوية وبحضارة متغلغلة في أعماق التاريخ تطبعها روح إنسانية عالمية لا مجال فيها للانقطاعات أو التزمينات من أي صنف أو أي طراز ، أن التخلف والعنف كوسيلة قهعية وما يستتبعان من قصاص ونار كل ذلك يشكل عوامل اضطراب تقابلها قرارات وضعتها هيئة الأمم المتحدة لمواجهة اللجوء إلى القوة والعُدوان غير أن تطبيقها يتعثر في « روتين » أو ربما في تقنيات شاذة تعزل السير الطبيعي لما صدقت عليه الأمم والشعوب من مراسيم وإجراءات .

إن مفهوم الآزمة وبدلولها ما زال لم يتحررا من تعقيدات كانت وليدة روح استعمارية جعلت من العنصر الخلقى والروحي جزءا متضائلا يذوب في خضم بنيوى كلاسكى يشكل التعليل الوحيد الذي فرض نفسه ولا يزال ، ذلك أن المحتوى الاقتصادي يشكل القوام الجوهرى لا الأقوى فقط ولكن الفريد في هيكل مادي تبرز فيه دواعي الخلل المالى أو الفلاحى أو الصناعى أو الاستهلاكى بما تثيره من هزات وأزمات واضطرابات وانفصامات في التوازن بين الانتاج والاستهلاك وانهايارات في مصافق المعاملات وانفصالات وبطالات وتخفيضات في العملات وفيوضات انتاجية مما لا يترك مجالا للعامل الخلقى الذى يكن فيه أحيانا الحل الأمثل لكثير من المشاكل والآزمات .

فالى منتصف القرن التاسع عشر لم تكن الآزمات - التي لم يراع فيها سوى جانبها الاقتصادى - سوى آزمات نقص في الانتاج الفلاحى نتج عنه خلل في الاستهلاك الصناعى بسبب انخفاض القوة الشرائية لدى الفلاح وكثيرا ما تنتج المجاعات - التي هى أبرز مظهر في الآزمات - عن قصاص في المحاصيل الزراعية وفي هذا الدور والتسلسل يتدخل ارتفاع الاسعار لخلق اضطرابات زراعية وتوقف للانتاج الصناعى بل إن الفائض الصناعى النسبى تنطلق منه أحيانا الآلية المحتومة التي يتحرك منها دولا ب الآزمات وفى كل هذا المسار يظل العنصر المادى هو المحرك الوحيد في نظر معظم رجالات التخطيط في العالم المعاصر وقد أصبح التسلح والتسارع إلى اختراع أشد الأسلحة فتكا عاملا دعم المعاملات المادية وضاعفها فالقنبلة النووية تعكس سياسة جديدة من الصبود تصبح الإنسانية فيها رهانا تتجاذبه كتلتان تتفاعل بينهما عوامل الخراب والدمار .

إن المفاعل الروحي والمعنوى في كل ذلك ؟ إن عامل الكبت الخلقى انهار إلى غير قرار . والعالم الثالث الذى تتضخم في هذه الحال أعداده ينتظر في قلق وحيرة ورعب أحيانا تجبرات ستكون البشرية بكاملها ضحيتها الأولى وكأنى بالإنسان تحركه وتذكىه غريزية وحشية يفعل فيها الحس الخلقى ضمن سلم براكماتيكي متحرك تتجرد فيه القيم من جوهرها الإنسانى .

وهذا الانهيار للمقومات الخلقية في مواجهة تسلسل الآزمات يؤدى حتما إلى خلل في التوازن الإنسانى وفراغ في مجرى التأريخ ومثالياته المتصاعدة

ومع ذلك فقد يكفى أحيانا عامل معنوى أو خلقى ضئيل لسد فراغ أو تقويم أود أو معالجة مشكل والواقع ان بعض اصناف الانسانية فى عالمنا الحديث لم تعد تستعمل لغة واحدة فى التخاطب والتفاهم بل ان البعض بدأ يتبادل الاتهامات والمنازعات فى سوء نية متبادلة ليس من شأنها ان تساعد على تحقيق التقارب لحل المشاكل ، انما لا نود ان نوصم بالعمل على اتحام عنصر دينى فى بلورة مبادئ أو مسلمات لا يعيننا منها الا مظهرها المعنوى والخلقى الذى هو تراث الانسانية بكاملها غير اننا نتجه قسرا فى محاولة تعريف وجهة نظر العالم الثالث المتبلور فى المجموعة الاريقية الاسيوية التى يسودها على ما يلوح الطابع الاسلامى .

لقد اوضح صديقنا بوازار (2) « ان الموضوعية التاريخية بل مجرد العدالة تحذو الى التذكير بان الحضارة التى تبنت ثقافة البحر المتوسط طوال سبعة قرون من العصور الوسطى - كانت اسلامية » ولا يوجد ضمن هذه النظرية الاسلامية ميز بين ما هو محتوم قانونيا وبين الواجب الخلقى .

ثم اضاف زميلنا بوازار (3) « ان الاسلام يمتلك عناصر جواب عن التساؤلات الاساسية فى العصور الحديثة .. وبذلك اتامت الشعوب الاسلامية اثر تخلصها من الاستعمار مرآة قد تنعكس عليها صورة متخيلة للمجتمع الاسلامى فى المستقبل » .

وقد لاحظ (بوازار) فى مكان آخر « ان الفلسفة الغربية وكذلك تاريخ أوربا منذ القرن التاسع عشر خاصة قد ساهبا فى وسم النظام القانونى الدولى بسمة ايجابية بارزة ترفض كل اعتبار خلقى أو روحى وبالرغم من حربين عالميتين لم يعرف ذلك النظام كيف يتلافاهما وبالرغم كذلك عن محاولة حديثة اكثر نسقا لتنظيم مجتمع الدول عن طريق هيئة الامم المتحدة وفروعها المتخصصة ، فان القانون الدولى ما زال على ما كان عليه لم يطرا عليه اى تغيير فى روحه » .

وهكذا يمكن القول بان الانسانية امست موضع تجاذب بين معطيات متناقضة تثبىق اما عن التزامية متحجرة أو عن منطلق مخلص نزيه ينتج بسرور الحقيقة ومن حسن الحظ ان طائفة من النخبة الفكرية المعاصرة - وهى متجهة نحو التحرر والانعقاد - لم تستطع مؤشرات المادية ومفرياتا امتصاصها ولا صرفها عما هى بصدد البحث عنه فهى تجهود النفس منطقية بين ثنايا كتلة غير متساوقة الوجهة

الروحانية التى ترى انها المنطقية أو الحركة السياسية الاجتماعية الاوفى والاكثر انطباقا على مبتغاها فلا الموروثات المجردة تعمى بصرها ولا العقلانيات أو النفسانيات أو التقليديات الواهية تستخفها ففكرها الخلاق المبدع نكر جر قد اكتمل توازنه بمتمهات رصينة تفجرت عن معطيات العلم الحديث الذى بدأ ينطلق فى يسر وفعالية بفضل جوهره المادى والروحى المزدوج . نعم ان العلم نفسه فى تجاربه الانسانية الواعية بدأ يحدونا الى البحث عن النسق المساوق بين عناصر كياننا فى تلك الارواجية .

ان مستوى الحياة ومسارها فى القرن العشرين يضعان مشكلا انسانيا يهم عالمنا الافريقى الاسيوى بالدرجة الاولى . فهذه الالتزامية التى كاد تسلسل الاحداث فى مخبرها الاستعمارى يفرضها علينا يجب ان نخضعها لاختيارات منطقية اى انسانية تتدر فيها قيمة كل مبدأ نبعنا لمدى ما ينطوى عليه من مرونة وصلاحيات لمسيرة روح العصر فى هيكلها المزاج بين العقل والعلم والمادة والروح .

ان تكامل العنصرين والتوازن بين معطياتها التى كان البعض يرى تناقضها هو سر الحل الفاصل والدواء الناجع لكثير من المشاكل التى تتعمد بسبب انخيازها عن البساطة الفطرية الكامنة فى توازن مقومات الانسان فلا مادة بدون روح ولا روح بدون مادة ولا حل منطقيا انسلانيا بدونها معا .

وفكرة التكامل هذه قد ادرجها فى مسلمات الفيزياء الحديثة العالمان (هيزنبرغ) W. Heisenberg و (نيلز بوهر) Niels Bohr جاعلين منها أحد المفاتيح الرئيسية التى تساعد الانسان على ادراك مغزى ما كان يراه متناقضا بل مستحيل الادراك ! فالرياضيات الماورائية métamathématique يتجه الى بلورتها علم الغد الذى سيكشف حقلا مغائرا للحقل المعهود للعمليات الذهنية كما سيرفع النقاب عن الابعاد الجديدة المرتكزة على فكرة تبنائها المؤتمر العالمى للفيزياء الذى انعقد فى بيوكن عام 1966 لدراسة مختلف اشكال الطاقة ما جل منها او دق مبرهنا عن وجود بنية سيكولوجية عليا .

نفى ظل هذه المعطيات العلمية اوسى الانسان يؤمن بأن الإنكارية الاستثنائية nihilisme لم تعد خاصية الفكر الحر وان التقليدية اللانطقية يجسب تنحيتها كاسلوب غير انساني من شأنه ان يشوه اختيارات الفكر ! ان قوة الانسان كالمئة فى قدرته على

الاختيار وفي الشعور بحريته في هذا الاختيار ولكن في نطاق توازنه الروحي المادى كائنسان !
ذلك ان الحكمة المثلّية تكمن في هذا الاختيار الذي يتجلى في بساطته من قبيل السهل الممتنع !
ان الخلق العالمى ليس لقيه المثلّى حدود مصطنعة ولا يمكن لاي كان ان يحد من مداه الانساني الذي هو سر مثاليته .

وهذه الوحدة الاصلية بين الحضارات والتزاوج العريق بين الاختيارات الحضارية هو الذي الهم بعض زعماء الانسانية امثال محمد اقبال !

ان اى تطور مهما يكن سيظل مشروطا بادىء ذى بدء بالتفتح التلقائى للكائن البشرى في وسط ملائم ومحيط لم تعكره ديباغوجية ولا تزمت مذهبي ! فالامة التى يتكافل مواطنوها تشكل الحقل الاصلح لاي اشعاع ! والامم التى تتفاعل اخويا في ظل (خلقية انسانية عليا) هى التى سيقدر لها ان تعيش وان تسود وان تفرض على العالم ذلك الاخاء الانساني الحق الذى يفتقده والذي سيشكل العامل الاقوى والواحد لتمهيد الطريق من اجل استئصال جذور الازمات والاسلام الذي يطبع اتجاهنا قد عرف - كما يقول (لوي كاردى) Louis Gardet كيف ينفلت من

مغريات الكبرياء التى انتادت لها الثقافة الغربية المعاصرة كما عرف كيف يتطور ضمن شعور عارم بالحقيقة بعيد عن كل (سوبرماتية) Supra-humanité يحفظ للإنسان توازنه في اطار ابعاده الحقيقية دون تحسس مغل ولا انحطاط مسف ! اذا كان عالمنا بأجزائه المتناثرة لم يتعرف بعد على طريقة تنسج له مجال التفاهم فما ذلك الا لان كل جانب يجهل كل شيء من الجانب الآخر فهذا الفراغ الخطير هو الذى سباه (لوشاطوليى) le châtelier

يخلق الفراغات malaise des lacunes والذي يقض مضاجع بعض اولئك الذين يسهرون على العلاقات الدولية مع العالم الثالث او العالم العربى او العالم الاسلامى وهم لا يعرفون عهد هارون الرشيد الا من خلال (الف ليلة وليلة) تلك الظاهرة المرة هي سر كثير من المجاذبات التى تعانيتها (الانسية المتوسطة) l'humanisme méditerranéen التى سبق أن وحدث بين الاسلام والمسيحية ودعمتها العقلانية الهيلينية كما فهمها سلفنا من قادة الفكر في البحر الابيض المتوسط امثال ابن رشد الذين كيفوا عقلية الانسان في العالم المتحضر انطلاقا من توازنه ووحدة جوهره وازدواجية قوابيه : العقل والروح

هوامش البحث

- (1) في كتابه (انشبة الاسلام - المقدمة)
- (2) نغلا من وولف (J. Wolf) في بحث له بعنوان (تراث حضارة ضادت الانسانية) (جريدة لوموند - مدد ثامن وتلتع يونيه 1969)
- (3) في كتابه (الاسلام والخلق العولى م 1 من 22) وهو الكتاب الذى طبع باسم (الانسية الاسلامية) وكان قد احواله علينا وهو في ملازمه الاولى لبدء النظر قبل الطبع بشكرا له .